طريق الغوطة

على طريق الغوطة المشجر كانت السيارة التي استعارها من جناح أخيه تطوف بنا على مهل في جنان دمشق، ان قلبي يتلقى فيض الجمال، وأنا أتأمل الخمر الخضراء المذهبة بالشعاع.. حدّثني عن تاريخ الغوطة والأبطال الذين سقطوا فيها، الأبطال المغمورين الذين قهروا الإستعمار الفرنسي فأثار الدمع في عيني.. حدثني عن مربض حسن الخراط، البطل الأسطوري الذي كان في يوم حارس حي، ثم غدا حارس وطن، والمقالب التي كان يفعلها فأطار النوم من عيون المستعمرين، هذا البطل الذي لا يدري أحد أين مقره الأخير، وتموت عائلته جوعا لأنه ابن الشعب وليس عريق النسب، وأردف بايمان وحماس:

–ان شعب سوريا لا يقهر، انه شعب محب للحرية منذ وجد.. حدثني كيف وضع الشعب ثقله في الميزان، فنزل نصف مليون دمشقي ليطردوا الشيشكلي من دمشق حين جار في حكمه..

لماذا أتبجح وأقول بأنني كنت حينذاك أفهم الطاقة الثورية للشعب.. كان الشعب في ذهني كلمة غامضة، كنت أتساءل كيف يحكم الشعب على الأمور دون وعي أو ثقافة؟ كنت أظن بأن الثورة تقع على كاهل أفراد واعين من أبناء الشعب يصلون الى الحكم ويعملون لصالح الشعب ولرفع الأعباء عنه، أي كنت باختصار لا أجد غضاضة في دكتاتورية فردية اذا بررت وجودها في مرحلة عصيبة، وكانت في صالح الشعب، ولكنني لا أساند الملكيات المتوارثة مطلقا، لأنني أومن بالديموقراطية!

قال لي بلهجة يشوبها بعض الغضب:

–انك تحتاجين الى تنظيم في مفاهيمك الفكرية، فيك رواسب كثيرة من البرجوازية الصغيرة!..

وانكمشت، وأحسست بشيء كوخز الإبر، لقد أهانني وجرحني في أعمق ما أعتز به.. كنت أثق بنفسي ثقة عمياء، وأحسب أنني واضحة نيرة التفكير ولا يمكن أن أخطئ الصواب.. لماذا لا يفرق بين سلطة ثورية من أجل الشعب وبين سلطة أنانية هي هدف بحد ذاته؟ لم أكن أكره عبد الناصر ولا سلطته الدكتاتورية

فهي في نظري ضرورية لجمع شمل الناس من أجل التحرير.. هذه سلطة لها مبرراتها الواقعية.. كنت أشاهد الناس في فلسطين كالخراف بدون راع!

لم أنبس بحرف.. أخذت أتأمل الطريق بشبه كآبة خرساء. ولم ألبث أن سمعت ضحكته، وأحسست بذراعه تطوق خصري:

-لا تزعلي! ان الإنسان لا يصل الى المفهوم الصحيح بسهولة، انه لم يخلق عالما ولا فيلسوفا..

وأردف وهو يعود الى قيادة السيارة بكلتا يديه وعيناه على الطريق:

-أنا نفسي تعثرت بكثير من الأخطاء حتى عهد قريب قبل أن أصل الى المفهوم الصحيح.. يجب أن تدرسي يا يسرى، لن يغنيك ذكاؤك ولا ملاحظاتك عن الدرس شيئا.

قلت وقد انتعشت روحي قليلا:

-سأدرس! لأعرف كل المشاكل التي تعترض الطريق الإنساني..

-الثقافة الغربية لا تعطيك الحقائق جميعها، تعطيك نتفا من هنا وهناك فتجعلك في ضباب عن رؤية أهدافها الإستعمارية.. أدرسي كتب الإشتراكية العلمية، انها تجيبك عن كل الأسئلة التي تدور بفكرك!..

كنت قد طالعت كتابا للنين "الإستعمارأعلى مراحل الرأسمالية" جاءتني به احدى طالباتي.. ففي السنوات القليلة الماضية كنت هدفا لعدد من الحركات التي تحمل شعار تحرير فلسطين في الوطن العربي، حركات متناقضة فيما بينها ولكنها تلتقي على التحرير.. قرأت من كتب هذه الحركات التي كانت تهدى الي: القومية والدينية والإشتراكية، ولم أنتم الى أي منها وبقيت مخلصة الى أدبي، أما بالنسبة للإشتراكية العلمية فكان أكثر ما يشغل بالي هو التوفيق بين الفكرة الإشتراكية كفكرة أممية وبين القضية القومية، فاستوضحته عن هذا الأمر فقال: الإشتراكية العلمية تجيبك عن هذا السؤال وأخذ يشرح لي بوضوح وثقة واطمئنان.. وجلست قربه كتلميذة نجيبة تصغي بكل جوارحها الى أستاذها الذي تعجب به، أكان من الممكن أن لا أقتنع؟ آه كم أنا بحاجة الى رجل غزير المعرفة، ثاقب الذهن، منطقي التفكير، لا دجل في حديثه ولا غموض! عرفت منه حينذاك أن الشيوعيين

هم أصلب المناضلين لتحرير الوطن من المستعمرين، فكم من رجل استشهد منهم في أرض فلسطين، أما بالنسبة للاستغلال، فنحن لم نصل الى المرحلة التي تظهر فيها أزمة الرأسمالية، وأمامنا شوط طويل لذلك..

* * *